سوريا في مهّب التحولات الدولية: دراسة جيوبوليتيكية نظرية

أ. جلال خشيب

باحث بقسم العلوم السياسية، جامعة قسنطينة.

تمهيد:

"يمكن أن تعوض نهاية الحرب الباردة بمجموعة واسعة ومتعددة من الحروب الباردة الصغيرة بين القوى الكبرى." لقد كان صاموئيل هنتينغتون محقا حينما عبّر بصيغته هذه عن التحدّي الجديد الذّي سيواجهه النظام الدولي الجديد المنبثق عن حرب باردة انتهت بانتصار الليبرالية الغربية بتزعم مطلق للولايات المتحدة دون أن ينتهي معها منطق التاريخ، فالديناميكية من خاصية البشر وسيادة الانسان لا تُحجمه عن فعل التنافس ومنطق تواصلية الصراع من أجل الاعتراف كما يعبّر عن ذلك إكسيل هونيث في نقديته الجديدة امتدادا للنزعة النيتشوية الرافضة لمنطق السكون البشري والقناعة الإنسانية.

ومنذ تفكك المنظومة السوفياتية شهد حقل الدراسات الدولية تحوّلات كبيرة سواء تلك المرتبطة بالنَزَعات التنظيرية الجديدة الثائرة على المنظور الوضعي أوبتلك المرتبطة بمنهجية التحليل ومستوياته وأدواته المعرفية. من هذه التحوّلات أنّنا أصبحنا نبدي اهتماما أكبر بالأنظمة الإقليمية ومستوياتها التحليلية بدلا من الارتهان لمنطق النظام الدولي الذي كان منطقا متناسبا بحق مع ما شهدته الساحة الدولية منذ الحرب العالمية الأولى من ديناميكية تسارعية . فانتهاء الحرب الباردة لم يكن في الحقيقة إلاّ بداية لحقبة جديدة من التنافس الدولي، إذ لم تكن مقولة النظام الدولي الجديد –بزعامة أمريكية مطلقة– والتي بشّر بها "تشارلز كروثامر" إلاّ وصفا لفترة زمنية قصيرة جدّا من بهجة الانتصار، فلم يكن هذا النظام الجديد إلاّ مرحلة انتقالية تحوّلية في مسار بنية النظام الدولي نحوالتعدد، فالافرازات الجديدة للحرب الباردة لم تكن كإفرازات سابقاتها من الحروب، تحوّلات بنيوية على جميع المستويات، قوى دولاتية إقليمية، فواعل غير دولاتية "مايكروسكوبية" مؤثرة، انتهاء مفعول الثلاجة وصعود الأديان وتأثير خطاب الإديولوجيات، تفجّر النزاعات الإثنية..إلخ ممّا جعل كل طرف في هذا العالم طرفا "حسّاسا" فاعلا ومتأثرا في نفس الوقت "مفعول الفراشة". كل ذلك ساهم في بلورة جديدة لمفهوم الأمن المتجاوز لمنطق الدولة الصلب.

ولم تكن منطقتنا العربية إلاّ ساحة من ساحات هذه الحروب الصغيرة في هذا العالم الجديد إن لم تكن أهم المناطق على الإطلاق.

1. المستوى الدولي:

لا أحد يساوره الشك في مفتاحية المنطقة العربية بمشرقها ومغربها في مشروع الخطة الأمريكية الكبرى كمنطقة ارتكاز في بعض مناطقها التّي غدت جزءً لا يتجزأ من الأمن القومي الأمريكي، لذا كان أي تهديد أوخطر يمّس هذه المناطق يعّد بمثابة تهديد للأمن القومي الأمريكي ممّا يستدعي مواجهته بحزم، لذا فقد عملت الأخيرة على نسج شبكة معقدة من الحلفاء هناك خاصة منذ الاجتياح العراقي للكويت والذّي زاد قناعة الأمريكيين في ضرورة التواجد الميداني لقواتهم هناك ممّا حوّل جزءً حسّاسا من المنطقة إلى ما يشبه بالمحمية الأمريكية العسكرية بحكم الواقع ومنطقة عسكرية متقدمة من التراب الأمريكي شنّت إنطلاقا من قواعدها حروبها العالمية على الإرهاب فيما بعد، تلك الحروب التّي سرّعت عملية التحوّل في بنية النظام الدولي.

في مقال سابق جاء تحت عنوان "فلسفة الإستراتيجية الأمريكية" حاولنا أن نبيّن في احدى فصوله تلك النزعة الثورية في السياسة الخارجية التّي تبنتها إدارة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر محطمين بذلك ما أسميناه "بالستاتيكو المقدس" وما تبعه ذلك من آثار سلبية على وضع الهيمنة الأمريكي على النظام الدولي المتشكل، إذ لم تكن حروبهم في أفغانستان والعراق والقوقاز وأزماتهم الدولية مع كوريا الشمالية وإيران وفي أوكرانيا. وكذا حروب حلفائهم الاسرائيليين في المشرق العربي "حرب 2006 على لبنان وكذا حربهم على غزة 2008 " إلاّ على حساب الإرادة الامريكية في إطالة زمن الهيمنة قدر المستطاع، وبقدر ما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تُعاني شبح الانفلات كانت قوى أخرى صاعدة من أكثر المستفيدين، فأي انفلات للهيمنة يعني توّجه النظام الدولي إلى صيغة أخرى أقرب للتعدّد منها إلى الانفراد، تعدّد تفرضه قوى إقليمية ودولية أخرى بحكم الواقع تقف روسيا والصين على رأسها وتتدافع فيها أخرى صعودا على المستوى الإقليمي كالهند، تركيا، إيران، البرازيل والمكسيك. لذا فقد تعالت أصوات أكاديمية وأخرى سياسية داخل الأروقة الأمريكية بضرورة تدارك الوضع وتصحيح مسار السياسة الخارجية الأمريكية تكتيكيا تناسبا مع هدفها الأكبر. إدامة حقبة التفوق الأمريكي ما أمكن.

لقد كانت المنطقة العربية –لاسيما مشرقها– من أكبر المتضررين من هذه السياسة الخارجية الأمريكية الثورية المحافظية الجديدة لكن وبالرغم من الانتهاء الرسمي لحقبة المحافظين الجدد إلاّ أنّ ملامح سياستهم لا تزال بادية في إدارة أوباما الجديدة، إذ لا يزال منطق الاستقطاب السياسي الإقليمي يطبع المنطقة، فلا تزال الولايات المتحدة وحلفائها في اسرائيل والخليج تقف في مواجهة دول مارقة كإيران وسوريا وحلفاءهما في لبنان والأراضي الفلسطينية المحتلة. أمّا المستحدث فطرأ على مستويين : تنامي الدور الروسي في علاقاته مع "هؤلاء المارقين" الذين يزدادون تصلبا وعنادا على قلب موازين المنطقة في غير الصالح الأمريكي ثم محاولة كل من تركيا أوغلووقطر الجزيرة لعب دور إقليمي ما، ممّا جعل المنطقة المشرقية بأكملها مخترَقة من قبل قوى أخرى غير الولايات المتحدة، في حين يُخترق غربها "المغرب العربي وكامل افريقيا" من قبل قوة دولية أخرى اسمها الصين. اذن فكل الجهود الأمريكية في توطيد دعائم تواجدها الانفرادي هناك عبر شبكة حلفاء دولاتيين "أنظمة عربية حليفة" وغير دولاتيين في هكذا مناطق إرتكازية آيلةٌ إلى التراجع والاختراق ممّا يستدعي ضرورة الإقدام على خطوة حاسمة تقطع الطريق أمام هؤلاء المنافسين الجدد الصاعدين.

الثورات العربية وانتقائية التغيير:

في كتابه الأخير "الإسلام والصحوة العربية" يذكر الأستاذ طارق رمضان أستاذ الدراسات الإسلامية المعاصرة في جامعة أكسفورد بشيء من التفصيل كيف حاولت الولايات المتحدة الامريكية استغلال الاحتقان الشعبي على أنظمة الاستبداد العربية بعد عقود طويلة من القهر والتدهور الاجتماعي وانسداد أفق الحرية والديمقراطية التّي كانت تدعوإليها الولايات المتحدة ومن وراءها هذه الانظمة ونخبها السياسية والفكرية، وقد مهدّت لذلك منذ سنة 2004 من خلال عمليات تكوين شبانية لمدونيين وشباب عرب في مراكز بوبوفيتش "كانفاس" ومثيلاتها في صربيا وما جاورها. وقد كانت حادثة الشاب البوعزيزي القطرة التي أفاضت الكأس وأشعلت نار الفتيل لانتفاضات شعبية هدفها الوحيد هوالتخلص من طوق الاستبداد السياسي النظامي تأسسا لنهضة بنيوية في هذه المجتمعات. اذ بدأت الثورة في تونس وانتهت بهروب الرئيس بن علي، وامتدت لمصر فأسقطت آخر "فراعنتها"، اشتعلت في اليمن فأبعدت الرئيس صالح، وكانت جذرية وعنيفة في ليبيا بعد تدّخل الناتو. في حين قُمعت في المهد في كل من السعودية والبحرين، وحاولت بعض الأنظمة السياسية امتصاصها وعزلها مثلما حدث في الجزائر والمغرب الأقصى. وقد

بدى جليا انتقائية الموقف الأمريكي تجاه هذه الانتفاضات وفقا لمصالحها ومصالح حلفائها، كما بدى أيضا ذلك التنافس المحموم بين الولايات المتحدة التّي تحاول إحداث وضع جديد متحكم فيه لصالحها وبين قوى أخرى على رأسها روسا في المحافظة على وضع قائم يكفل مصالحها في المنطقة، وبما أنّها خسرت وضعا مناسبا في ليبيا بشكل حاسم ومذل على يد الناتوكذراع عسكري للولايات المتحدة فإنّها تأبى اليوم هزيمة مذّلة أخرى في معاقلها العربية الأخيرة سوريا، وهنا سيتوقف التحليل قليلا لمحاولة تكوين فهم "فوقوي" لما يحدث على الساحة السورية المشتعلة.

2- سوريا والتنافس الروسي الأمريكي :

كيف نفسّر ما يحدث على الساحة السورية من تنافس؟

لماذا كل هذا الدعم الروسي المستميت لنظام بشار الأسد في سوريا؟

هل ستفقد روسيا آخر قلاعها الحصينة في المشرق العربي؟

يرى البروفيسور سانتورو رئيس معهد الدراسات السياسية العالمية في ميلانوأن الإنسانية في وقتنا الحاضر تدخل مرحلة انتقالية من العالم الثنائي القطبين إلى الصيغة العالمية من تعدد الأقطاب، والتي تبدو—حسبه- أنها تعكس المنطق الهرم للجيوبوليتيكا الثنائية القطبين —أي التيلوروكراتيا في مواجهة التالاسوكراتيا- فبالرغم من سقوط الاتحاد السوفياتي، إلا أن العالم كله لا يزال يحمل الطابع الثابت للحرب الباردة والتي يبقى منطقها الجيوبوليتيكي مسيطرا. لذا فقد تنبأ الرجل بأنّ العالم سيشهد حروبا من المستوى الصغير والمتوسط ستؤدي إلى تشكّلات جيوبولتيكية جديدة.

فهل ستكون سرويا ساحة لحرب جيوبوليتيكية جديدة بين الكبار؟

في الحقيقة لم نجد إلى الآن أحسن من الأنموذج القياسي الواقعي في تفسير ما يحدث من تفاعلات بين القوى الكبرى على الساحة السورية، فبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كتب جورج كينان سنة 1947 تقريرا للإدارة الأمريكية آنذاك يحاول فيه أن يرسم إستراتيجية متماسكة لمواجهة الحليف السوفياتي القديم وقد عرفت بإستراتيجية الإحتواء وهي فكرة جيوبولتيكية محضة تحثّ الولايات الأمريكية على التمركز في نقاط معينة من البر الأوراسي سواءً عبر قواعد عسكرية أوأحلاف مركزية أوأنظمة صديقة، هدفها الأساسي محاصرة "قلب الأرض" الأوراسي ودفعه إلى الداخل ما أمكن تجنبا لتمدّده خارج حدوده السياسية تمهيدا لتفكيكه من

الداخل، تزامنا مع ذلك صدرت نظرية الواقعي الأمريكي نيكولاس سبيكمان عن حافة الأرض أوالإطار The Rim Land حيث يشير إلى المناطق –الهلال- التي تحيط بقلب الأرض "الروسي" وتحفه، ولهذا سميت بالإطار أوحافة الأرض، والذي يضم كل من أوروبا البحرية "الغربية" والجزيرة العربية بما فيها العراق والهند وجنوب شرق آسيا ثم الصين وشرق سيبيريا، إنه بعبارة أخرى، الحدود البحرية للقارة الأوراسية من شرق سيبريا إلى غرب أوروبا.

وتمثل حافة الأرض "الريملاند" المجال المركب الذي يتسم من حيث الاحتمال بإمكانية أن يكون جزءا من التالاسوكراتيا –أي القوة البحرية- أوالتيلوروكراتيا – أي القوة البرية-، وهوالمنطقة المعقدة والزاخرة بالثقافة، وتأثر البيئة البحرية "القوة البحرية" في المنطقة الساحلية فتثير فيها التطور الفعال والديناميكي، كما أن للكتلة القارية "التيلوروكراتيا" ضغوطا عليها، وصراع التالاسوكراتيا – الأطلسية الجديدة- والتيلوروكراتيا –روسيا الجديدة-، على الريملاند ليس تنافسيا من أجل الاستحواذ على موقع استراتيجي عادي، وإنما على ما يعتبره سبيكمان مفتاح السيطرة العالمية، فحافة الأرض الأوراسية بالنسبة له أكثر أهمية من قلب الارض " أولنقل المساحة التي تسيطر عليها روسيا" ومن يسيطر على حافة الأرض سيسيطر على قلب الارض ومن يسيطر على قلب الارض سيحكم العالم.

وأخيرا يعتبر سبيكمان أنّ الريملاند بمثابة منطقة حاجزة تفصل بين القوى المتصارعة البرية والبحرية، في زمن السلم، كما تعتبر منطقة التقاء وتصادم Crush Zone بين القوى البحرية والبرية في زمن الحرب.

بناءً على ذلك، فقد عملت روسيا منذ مجيء بوتن للسلطة على استدراك ما اعتبره الكثيرون خطأ القرن الإستراتيجي أي قرار غورباتشوف بحل الإتحاد السوفياتي، فمنذ ذلك الوقت وروسيا تعاني أزمة جيوبوليتيكية تهدّد أمنها القومي بفعل الإمتداد الأطلسي إلى جوارها القريب، لذا فالإستراتيجي بالنسبة لروسيا اليوم والأكثر إلحاحا الآن هوالحرص على تحويل "الأراضي الساحلية" إلى حلفاء لها عبر التغلغل الاستراتيجي إلى هذه المناطق وإقامة أحلاف متينة في مواجهة السطوة والتمدّد الأطلسي الجديد.. لذا ينبغي عليها التحرك شرقا وغربا لتحقيق هذا التكامل الأوراسي القاري فيصبح بذلك الريملاند ضرورة لروسيا لتصبح فعلا قوة جيوبوليتيكة قارية مستقلة.

لذا فقد حرص الروس على عدم التراجع أوالتردّد في مواصلة هذه الإستراتيجية الكبرى والتّي تتطلب منهم امكانيات ضخمة لتفعيلها ن لذا أولت روسيا منذ مجيء بوتين اهتماما كبيرا بتحسين اقتصادها بدلا من تركيز كل الجهود في الصناعات الحربية الثقيلة وقد لاحظ الجميع تلك الديمقراطية الروسية "المضحكة" التي تقوم على تبادل الأدوار وتغيير الواجهة وحسب، كل ذلك يهدف –في نظرنا– إلى استمرار خطة كبرى معينة أي استراتيجية واضحة في أذهان حكام الكريملين تهدف إلى استرجاع أمجاد روسيا القيصرية والخروج بها من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم لتأمين الأمن القومي الروسي البعيد.

لقد كانت الحرب الجورجية الأخيرة –أوت 2008– مثالا جيدا لما يمكن أن يصل إليه التنافس الجيوبوليتيكي بين روسيا التيلوروكراتيا وأمريكا التالاسوكراتيا وقد كانت ساحتها هذه المرّة منطقة القوقاز، فالمشاريع الجيوبوليتيكية والإستراتيجية للقوتين بلغت حدًّا من التناقض والتضارب الذي يجعل القنوات الدبلوماسية والسياسية تقف عاجزة عن تجاوزه، ومع ضيق الزمن، وحساسية المصالح وتقلص الخيارات، تبرز الحرب كوسيلة حتمية ووحيدة لتجاوز هذا التناقض أوبلوغ تلك المصالح، هذا هوالنوموس الذي خلده كلاوزفيتز في مقولته الشهيرة : " الحرب هي إمتداد للسياسة بوسائل أخرى".

لم تكن الحرب الجورجية هذه، مواجهة مباشرة بين المديان الكبيران، رغم ذلك تعد علامة فارقة وإحدى أهم خطوات الاتجاه نحوالانتصار الجيوبوليتيكي لأحد هذان المديان، فمنافستها المحمومة على القوقاز رشّح هذه المنطقة إلى مصاف المناطق الإرتطامية، وكانت جورجيا بذلك–في هذه المرحلة بالذات– بمثابة جسر المرور الأكيد والمجال الحتمي للمعركة الساخنة والباردة بين قطبي القوى والذي لا يمكن لأحدهما أن يصل إلى الآخر إلا بالمرور عبره والتباري في ملعبه. وقد انتهت هذه الحرب بضربة موجعة وجهّها البر الأوراسي للتلاسوكراتيا الأمريكية وخرجت منها موسكومتنمّرة، بل جرى الحديث آنذاك أنّ الحرب الجورجية الأخيرة كانت بداية لنهاية الأحادية الأمريكية وتمهيدا لنظام دولي متعدّد الأقطاب تحتل فيه روسيا العائدة مكانة الكبار.

وإذا كانت جورجيا قد احتلت قبل سنوات قليلة مركز التجاذب كمنطقة صدام في عُرف الجيوبوليتيكا فإنّنا نرّشح سوريا لتكون اليوم ساحة تجاذبات إقليمية ومنطقة إرتطام جيوبوليتيكة بين المديان الجيوبوليتيكيان الكبيران. إذ يرى سبيكمان في تحليله من أن مركز الدولة في إطار السياسة الدولية، لا يتوقف من الناحية الجيوبوليتيكية، على موقعها الثابت، وإنما يعتمد

أيضا وإلى حد بعيد على علاقة هذا الموقع بمراكز القوى المؤثرة في السياسة الدولية، ولما كانت مراكز القوى هذه في حالة تغير لأسباب عديدة، فإن قيمة الموقع الجغرافي للدولة هوالآخر يتغير، ليس من الناحية الجغرافية، وإنما من حيث طبيعة التفاعلات السياسية، بعبارة أخرى أن التفاعلات السياسية وتغير مراكز القوى الدولية تؤثر على القيمة السياسية للموقع الجغرافي.

وبهذا المفهوم فإنّ سوريا تُعّد اليوم وفقا للإستراتيجية الأمريكية جزءً حساسا من حافة الارض لمحاصرة روسيا من جهة الجنوب الغربي والحيلولة بينها وبين المياه الدافئة لذا فإقامة أنظمة حليفة في مناطق حساسة كهذه –والتّي تمثل دفاعات متقدمة للأمن القومي الروسي– مطلب أمريكي ملّح . إضافة إلى ذلك فإنّ سوريا اليوم تعّد دولة إرتكازية – Pivotal States – على حدّ تعبير البروفيسور بول كينيدي في احدى مقالاته عن الإستراتيجية الأمريكية –إلى جانب جورجيا في القوقاز – لذا فأهمية المنطقتين بالنسبة للطرفين يجعل من المنطقتين بالمفهوم الجيوبوليتيكي منطقتي ارتطام..

فلنأتي الآن لنملئ الفجوات. في 2011 ألقى البروفيسور نيل فرغيسون أستاذ الدراسات التاريخية في جامعة هارفرد محاضرة في الشاتهام هاوس البريطاني تحت عنوان : " الغرب والبقية، تحولات ميزان القوى العالمي في المنظور التاريخي " تحدّث فيها عن حقيقة الصعود الصيني وتزايد نفوذه الإقتصادي في إفريقيا وما يشكله ذلك من تهديد لمصالح الغرب والولايات المتحدة مستقبلا، وكما هومعلوم فإنّ القوتين الصينية والروسية تتحركان بشكل متوازي في الجهة المقابلة للتحرك الأمريكي لذا كان لزاما على الأمريكيين أن يبادروا بالتحرك قبل فوات الأوان، وهنا نرجع إلى الفكرة السابقة الأستاذ طارق رمضان حينما نربط هذا الحراك الشعبي ونضعه في قالب بنيوي دولي.

فبعد تحالف دام عقودا من الزمن ها هي الولايات المتحدة اليوم تعمل على فكّ هذا الإرتباط بينها وبين بعض الأنظمة العربية التّي رعتها لعقود والذّي أصبح تواجدها اليوم مضّرا بالمصلحة الأمريكية في المنطقة لذا فإن عملية تحريك توازنات المنطقة وإعادة تشكيل خارطتها السياسية أصبح مطلبا لا بد منه وذلك في منحى يساعدها على تقويض القوى الصاعدة في الشرق لاسيما الصين وكذا روسيا ايضا، إذ لا يريد الأمريكيين استمرار العلاقات الطيبة بين قوى الشرق وخزان العالم المستقبلي في إفريقيا ومناطق ارتكازها والمناطق التّي يتغلغل منها نفوذ الأعداء

المنافسين في الشرق "روسيا والصين" لذا فتغيير الأنظمة في مناطق معينة سيساعد على كبح هذا النفوذ المتزايد لقوى الشرق قبل أن يستفحل هذا النفوذ.

تزامن كل ذلك مع احتقان الشارع العربي لذا رأت الولايات المتحدة فرصة مواتية في ذلك عليها أن تتخذ معها قرارها الحاسم فراحت تدّعم وتموّل ثورات وتقمع أخرى قد تنشب في مناطق حسّاسة تحميها أنظمة موالية وحليفة أي منطقة الخليج العربي عموما، السعودية على وجه الخصوص. وبناءً على ذلك كان سقوط النظام السوري مطلبا أساسيا وملّحا لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها الخليجيين وخطا أمنيا دفاعيا متقدما ومنفذا استراتيجيا هجوميا لكل من روسيا والصين.. فهل سيحدث في سوريا ما حدث في القوقاز؟ هل ستندلع الحرب قريبا؟ أمّ أنّ الوضع السوري أكثر تعقيدا وتداخلا؟

إنّ الإجابة على مثل هذا السؤال يحتاج منّا إلى ومضات نظرية؟

– إنّ الدول الكبرى لا تفكر في مدى قدرتها على شن الحرب وهزم العدوأكثر مما تفكر في تعبات هذه الحرب وتداعياتها..

– الدول الكبرى توازن بين الأهداف والمصالح وبين نتائج السلوك السياسي أوقرار الحرب وفق مبدأ العقلانية –وإن كانت عقلانية جزئية كما اتفق على تسميتها باحثوالعلاقات الدولية–..

– الدول لا تتردد في الدخول في حروب لورأت أن نتائجها الإيجابية البعيدة أفضل من النتائج السلبية البعيدة لقرار اللاحرب..

– الدول لا تتوانى عن خوض الحروب إذا رأت أن أمنها القومي مهدّد ومفهوم الأمن القومي في الدراسات الأمنية لا يرتبط بالحدود الجغرافية للدولة وحسب كما هومعروف فلكل دولة أمنها القومي المتوافق مع نطاق تأثيرها ومصلحتها القومية..

– وأخيرا الدول الكبرى لا تتوانى عن خوض ما يسميه روبيرت جيلبين بحروب الهيمنة إذا رأت أن الحرب ستمكنها من انتزاع شاهد الهيمنة من المهيمن فأدركت أن الوقت صار مناسبا وأنّ المهيمن يفقد توازنه ويتداعى. إذ يرى جيلبين أن المحافظة على مكانة الدولة المهيمنة يتطلب منها مصاريف هائلة للدفاع عن مواقعها، الأمر الذي يتم على حساب النموالاقتصادي، هذا ما يعني أن قانون نسب النموالمتفاوتة (الغير متكافئة) يلعب عاجلا أم أجلا في صالح القوى الثانية والتي إن قدرت إحداها أن هذا النظام لا يلعب في صالحها وأن الفائدة المنتظرة تكون عبر تغيير هذا

الوضع القائم فإنها لن تتردد في منافستها للقوة المهيمنة الشيء الذي ينتج عنه ما يعرف بحروب الهيمنة وهي كما يعرّفها بأنّها :"حرب لا تتمحور فقط حول محاولة تحقيق أهداف مباشرة بل لامتداداتها وتحدياتها ذلك أنها تمس كل الوحدات الدولية المكونة للنظام".

لذلك فإن حرب الهيمنة هذه هي عبارة عن حرب شاملة هدفها وضع أسس جديدة لنظام دولي جديد، "صراع الهيمنة الذي ينتج عن اختلال التوازن المتزايد بين ما تملكه الدولة المهيمنة من إمكانيات وبين ما يتطلب من إمكانيات من أجل الحفاظ على النظام، هذا ما يؤدي في النهاية إلى ميلاد نظام دولي جديد".

انطلاقا من هذه الومضات النظرية النيوواقعية يمكن القول أنّ الأزمة السورية بتعقيداتها الإقليمية تعّد ساحة حقيقية لانبثاق نظام دولي جديد، فالولايات المتحدة تلعب اليوم دور المهيمن في حين تلعب كل من روسيا والصين دور المتربص بتراجع هذا المهيمن، فالخسائر الكبرى التي منيت بها الولايات المتحدة منذ إعلان مشروع القرن الأمريكي على أيدي المحافظين الجدد والاضطرابات الإستراتيجية التّي أحدثها هؤلاء في غير الصالح الأمريكي جعل الولايات المتحدة اليوم في حالة اضطراب وتراجع نسبي، وسمح في الوقت ذاته لكل من القوى الصاعدة أن تحاول إيجاد موطأ قدم مناسب لمكانتها الإقليمية أوالدولية.

إن التحالف الضمني بين روسيا والصين تجاه الأزمات الدولية الكبرى سيصنفهما حتما للعب دور القوى المتربصة التي لن تتوانى في اختيار الوقت الحاسم لإحداث التغيير في بنية النظام الدولي بإعتبارها قوى تعديلية كما يصفها الواقعيون الهجوميون، لكن كون الساحة السورية منطقة ارتطام جيوبوليتيكة كما قلنا لا يعني بالضرورة أن تكون ساحة لحرب مباشرة بين القوتين الكبيرين هناك فليس الأمر بهذه البساطة، فمبدأ العقلانية كما أشرنا يقطع الطريق أمّام نشوب حرب مباشرة لا يمكن التنبؤ بتداعياتها، فالواقعية لا تعني التهوّر كما يقول كيسنجر ، فمنطق الردع النووي أوحتى الردع التقليدي لا يسمح بالحرب المباشرة —منطق العقربين في زجاجة كما يصف كلوزفيتز–خاصة في منطقة حساسة جدا متشابكة الأزمات.. إذن ما نتحدّث عنه هنا هوما يسمى في أدبيات الدراسات الدولية بحروب الوكالة.

3– المستوى الاقليمي :

في حالة ما إذا سقط النظام السوري – المتصدّع– :

هل ستنضم سوريا إلى قائمة الدول الفاشلة " failed states "؟

وبالتالي هل ستتحوّل سوريا إلى مصدر للا أمن في المنطقة، مصدرا مُصدّرا لمخاطر وتهديدات عديدة على دول الجوار؟

- هل ستفقد إيران عمقها الإستراتيجي في المنطقة؟
- هل سيحمل سقوط النظام السوري أولى بوادر الثورة الملوّنة الجديدة في إيران؟
- أم سيكون ذلك عاملا مشجعا على التفكير الجدّي في حرب جديدة في المنطقة في مواجهة إيران بعد إحكام الطوق الإستراتيجي عليها؟

لا تزال منطقة "الشرق الأوسط" تعاني إلى اليوم من تبعات سقوط النظام العراقي بعد الغزوالأمريكي للعراق سنة 2003، إذ تحوّلت العراق إلى ساحة حقيقية لصراع مصالح إقليمي لعب فيه التأجيج الطائفي الديني المتعمد دورا فعّالا في كسب هذا الطرف أوخسارة ذاك نقاطا على حساب الآخر، فبعد أن استعملت السعودية ودول الخليج نظام صدام حسين لجعل العراق بوابة متقدمة لحماية أمن المنطقة ممّا أسموه بالمدّ الشيعي منذ الثورة الإسلامية الخمينية في إيران، ها هي تصطف إلى جانب الولايات المتحدة سنة 2003 لإسقاط هذا النظام الذّي صار يشكل تهديدا مباشرا لمصالحهم لا يقل عن التهديد الإيراني وذلك منذ اجتياحه للكويت سنة 1991، لكن ما لم يحسب له هؤلاء بمساهمتهم الفعالة في إسقاط نظام صدام حسين سنة 2003 هوتسليمهم لبوابتهم القديمة لعدوهم ومنافسهم القريب إيران في طبق من ذهب فقد فتح سقوط النظام دولة العراق لتمارس فيها إيران نفوذها التّي لم تحلم به يوما، لذا تطلّب ذلك من زعماء الخليج بذل مزيد من الإمكانات للإبقاء على نفوذهم هناك حمايةً لأمنهم الإقليمي ممّا حوّل العراق إلى ساحة لتجاذبات إقليمية بين القوتين مزقت حضارة بابل العريقة وحوّلت العراق إلى دولة فاشلة مصدّرة لمختلف المخاطر والتهديدات الامنية لكامل دول الجوار الإقليمي.

لا نعتقد أنّ عرب الخليج يتعلمون من دروس التاريخ أولنقل أنّهم ينسونها بسرعة أوبعبارة أدّق فقد حسموا خيارهم الإستراتيجي منذ بناء أوّل قاعدة عسكرية أمريكية هناك، وها هم اليوم يجتهدون لإسقاط النظام السوري بنفس الطريقة التّي أسقطوا بها غريمهم الأوّل، إذ تشهد المنطقة اليوم مناخا شبيها بمناخ ما قبل سنة 2003، عمليات شيطنة لنظام الأسد، دعم خصومه في الداخل، فتاوى سياسية جاهزة تستبيح دماء الأسد وأعوانه، تمهيدا لقرار الحسم الذّي يصطف فيه

هؤلاء إلى جانب حليفهم الأمريكي لإسقاط النظام السوري بطريقة ما. وإذا كانت البلدان الخليجية لا تود استنباط دروس التاريخ عبرا وفوائد فإنّ الأمريكيين أكثر حذرا من هؤلاء، إذ سيعّد هؤلاء حتّى الألف قبل اتخاذ أي قرار رسمي بتدخل عسكري أطلسي في سوريا للأسباب الموضحة آنفا.

لذا فعملية حصر البدائل وقياس نتائجها كما تطرحه مقاربات اتخاذ القرار في السياسية الخارجية تبدوعملية صعبة جدّا ومعقدة بالنسبة للولايات المتحدة وإذا استبعدنا قرار التدخل المباشر كما حدث في ليبيا فإنّ عملية التفتيت من الداخل بأيدي غير أمريكية سيكون الأنسب وسيحمل الربيع العربي بشرى سارّة للسوريين، ومن هنا جاء خيار دعم المعارضة المسلحة في الداخل كأحسن بديل مطروح في هذه الآونة بعد أن مهّد له "الأصدقاء الخليجيين" بأموالهم وألقوا بفتاوى شيوخهم وسط العامة من الشعب لذا ينبغي على أي متتبع حاذق أن يقرأ كلّ تأجيج طائفي عبر فتاوى السوء في هذه المرحلة بالذات من مسار الأزمة السورية بإعتباره ليس إلاّ امتدادا طبيعيا لصراع استراتيجي يحكمه عامل المصلحة بين قوتين إقليميتين في المنطقة "السعودية وإيران "، سيكون الدين إذن –قياسا على مقولة كلاوزفيتس الشهيرة– امتدادا طبيعيا للسياسة بوسائل أخرى.

فكما ذكرنا أنّ سوريا ستتحوّل إلى ساحة تجاذبات إقليمية حادة ومسرحا لتحقيق الأفضلية الأمنية للأمن القومي المتقدم لكل القوى الأطراف المتنافسة سواءً دولية متمثلة في "الولايات المتحدة وروسيا " أوإقليمية" السعودية وحلفاءها في مقابل إيران التّي ستجد نفسها معزولة إقليميا وهذا هوالمقصد الأوّل من إسقاط النظام السوري.. فهو–إقليميا– مجرد مرحلة تكتيكية لهدف إستراتيجي يستهدف إيران، وهنا نعيد التذكير بتنافس إقليمي آخر مترابط بين الإيرانيين والإسرائيليين، الأولى كقوة إقليمية طامحة لاكتساب مزيد من القوة حسب تعبير جون ميرشايمر عن هدف الدولة، والثانية كقوة إقليمية تسعى بكل طريقة لحفظ البقاء حسب تعبير كينيث والتز "فبعد هدف البقاء قد تتعدّد أهداف الدول بأشكال متنوعة "، فسقوط النظام السوري سيفقد إيران عمقها الإستراتيجي في المنطقة ويجعلها دولة حبيسة من ناحيتها الجنوبية ويغلق قنوات الاتصال بينها وبين حليفها في جنوب لبنان حزب الله كحليف متقدم على تراب عدوإسرائيلي منافس وسيحوّل سوريا إلى دولة عازلة –لصالح إسرائيل– كالأردن تماما وهذا يتطلب جهودا حثيثة لبثّ الاستقرار ما أمكن في سوريا قبل أن تتحول إلى دولة فاشلة مصدرة

لأشكال لا متناهية من المخاطر والتهديدات على الإسرائيليين، إذا فرهان الولايات المتحدة وحلفاءها في المنطقة يدور حول ردّ الفعل الإيراني بعدما يجد الإيرانيون أنفسهم في وضع حرج معزولين، قد يكون البديل العقلاني المتاح أمامهم هوإعادة التفكير الجدّي في مشروعهم النووي والكف عن لعب دور الممانع الشرعي للشيطان الأكبر فيحفظوا لأنفسهم الاستقرار ولنظامهم التماسك.. فهل سينحوالإيرانيون هذا المنحى في المستقبل القريب أم سيتمسكون بمطالبهم الشرعية النووية ليلعبوا وقتهم الأخيرة داخل التراب السوري طمعا في حفظ نفوذهم هناك كما فعلوها في العراق؟ سيكون ذلك مرهونا بالخارطة السياسية التّي ستنبثق عنها الساحة السياسية ما بعد نظام الأسد الآيل إلى التصدع والسقوط.

لن نغادر هذا المستوى التحليلي حتى نشير في عجالة إلى ثلاث قوى إقليمية تنامى تأثيرها في الآونة الأخيرة أوسيتنامى قريبا :

- الدور القطري عبر قناة الجزيرة الإعلامية كدور مكمّل ومتكامل مع الدور السعودي.
- النشاط غير المسبوق للسياسة الخارجية التركية تجاه المنطقة.
- وأخيرا الدور الذّي ستلعبه مصر الجديدة.

لقد كان لكل من القوتين الأولى والثانية تأثيرا متباينا على الأزمة في سوريا وعلى الحراك الشعبي الحاصل عموما منذ ثورة الياسمين في تونس، إذ حاولت دولة قطر المجهرية أن تلعب دورا إقليميا كبيرا من خلال القوة الإعلامية التّي مثلتها قناة الجزيرة التّي بدى في الآونة الأخيرة بشكل لا يدع مجالا للشك أنّها أصبحت امتدادا طبيعيا للسياسة الخارجية القطرية، فالموارد التّي تملكها هذه الدولة في حجمها الصغير وحسن استغلال هذه الموارد سمح لها بأن تكون طرفا فاعلا في القضايا الإقليمية، وإذا كانت توّجهات سياستها الخارجية تصب في نفس الاتجاه السعودي على العموم إلاّ أنّها في الحقيقة تسعى للعب دور منافس للسعوديين في مجلس التعاون الخليجي، كما أنّها تبدوأقل معارضة وأكثر حماسة للصعود الإخواني الإسلامي في العالم العربي أكثر من السعودية مركز السلفية والوهابيين الحامي الداخلي للنظام السعودي والذّي يمنحه شرعية البقاء.

وهنا تتقاطع كل من قطر وتركيا، فلا شك أنّ تراجع التيارات السلفية في العالم العربي لصالح غريمها الاسلامي الأوّل الإخوان المسلمين سيضعف التأثير السعودي على المنطقة لصالح التأثير التركي– القطري، ما يهمنا هنا هوأثر هذا التنافس وتقاطع المصالح على ما يحدث في سوريا

اليوم فإن التقى الجميع حول ضرورة رحيل نظام الأسد فسوف يختلفون عن طبيعة البديل وولاءاته واتجاهاته الخارجية وإن كان الجميع يعمل لقطع الطريق أمام إيران في سوريا فإنّهم سيتنافسون لأجل تشكيل الخارطة السياسية الجديدة التّي سينبثق عنها سقوط النظام السوري القائم.

أمّا بخصوص مصر الجديدة بقيادة الإخوان المسلمين فلا شكّ أنّ الموقع الجيوستراتيجي لمصر سيدفعها –بغض النظر عمن يحكمها– إلى لعب دور ما في القضايا الإقليمية العالقة، وإن كانت القيادة الجديدة ستحاول الحفاظ على شيء من الإستقرار مع محيطها الإقليمي وكذا في علاقتها مع الولايات المتحدة حتّى تتمكن مصر أن تتعافى داخليا قبل أن تجازف بأي دور إقليمي قد يجلب عليها المتاعب في هذه الآونة الحرجة، فإنّنا لا نستبعد أن يكون لمصر الجديدة دور فعّال في معادلة التنافس الإقليمي، لذا فإنّ المنطقة ستشهد تغيّر في ميزانها الإستراتيجي ببزوغ خمسة قوى إقليمية مؤثرة لن يساوم أي منها على مكانته المستحقة في خارطة الغد : السعودية، إسرائيل، مصر، إيران وتركيا، لذا بإمكان مصر الجديدة أن تلعب الدور الذي لعبته بريطانيا في حقبة ما من تاريخ أوروبا لتكون حاملة الميزان الإستراتيجي في المنطقة، كما بإمكانها أيضا أن ترّجح كفة هذا الطرف أوذاك بشكل حاسم في حالة ما إذا حسمت خيارها الإستراتيجي مستقبلا.

4– الرهان السوري. بديلا عن الخاتمة :

لا يمكن بأي حال من الأحوال فهم ما يجري داخل كرة البيلياردوالسورية دون الاستناد إلى كل ما ورد سابقا، ومع الانفلات الأمني الذّي يشهده الداخل السوري اليوم وفقدان النظام السوري شرعيته لدى أغلب الأوساط باعتباره المسؤول الأوّل عمّا أوصل سوريا إلى هذا الوضع كونه نظام سياسي مغلق يتغذى على القهر ويعيش على الاستبداد السياسي فقد أصبح الكل يحاول ركوب انتفاضة السوريين كل حسب مصالحه الأمر الذّي أغرق سوريا في الدماء ممّا أعاد إلى الأذهان السؤال الذّي كان يطرحه الجزائريون أثناء العشرية السوداء "من يقتل من؟"، إلا أنّ الوضع هناك أكثر تعقيدا وتداخلا، فلا يكفي تسليط الضوء على القشرة الصلبة لكرة البلياردوولا على بنية النظام الدولي وتعقيدات المصالح الإقليمية لتكوين فهم متكامل إذ علينا فهم التركيبة الإثنية بكل ما يحمله هذا المصطلح من معنى واسع –جميع خطوط الاختلاف والانقسام البشري– حتّى نفهم التركيبة المابين ذاتانية في سوريا. نخشى أن تتحوّل اللعبة في سوريا إلى لعبة صفرية فمكاسب طرف لن تكون إلاّ مغرما للطرف المنافس.. لذا فالحلول التوفيقية ستكون صعبة جدا لكنها الحل الوحيد لتلاشي حرب مقبلة لواشتعلت ستغيّر وجه المنطقة ولا أحد بإمكانه أن يتنبأ بانعكاساتها

على بنية النظام الدولي في حالة تداعيها وانفلاتها فقد تفتح ملفات اخرى بين المتنافسين الدوليين والإقليميين إما تحجيما للأزمة قبل تحولها لحرب ضروس أوابتزازا ومحاولة للحصول على مكاسب من جهة اخرى بين هؤلاء المتنافسين.

لذا ينبغي على النخبة السورية الجديدة التّي سترسم مشهد الحياة السياسية هناك أن تكون واعية لهذه التحديات وأن تسعى جاهدة لتكون عاملا مستقلا في المعادلة لا عاملا تابعا فيها تتجاذبه التيارات الإقليمية والدولية لتجعله يصطف هنا أوهناك، ينبغي على شرفاء سوريا أويغتنموا محورية دولتهم ومكانتها الإقليمية ومحلها من التنافس الدولي القائم ليستثمروا في ذلك لمصلحة دولتهم بشيء من البراغماتية الحميدة بدلا أن يحوّلوا سوريا إلى ساحة لتصفية حسابات إقليمية وتحقيق مصالح دولية لن يكون لسوريا أي نصيب منها على المدى البعيد.

قائمة المراجع:

- دوغين، ألكسندر. ترجمة: عماد حاتم. **أسس الجيوبوليتيكا: مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي**. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2004.
- فهمي عبد القادر محمد، **المدخل إلى دراسة الإستراتيجية**. عمان: دار مجدلاوي، 2006.
- صافي، عدنان. **الجغرافيا السياسية بين الماضي والحاضر**. عمان: مركز الكتاب الأكاديمي، 1999.
- الذيب، محمد محمود إبراهيم. **الجغرافية السياسية: منظور معاصر**. القاهرة: مكتبة الأنجلوالمصرية، 2005.
- مصباح، عامر. **الاتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2006.
- فرغيسون، نيل. ترجمة جلال خشيب. **الغرب والبقية تحولات ميزان القوى العالمي في المنظور التاريخي**. الموقع الشخصي للباحث:

http://philopoliticsbridges.yolasite.com

- جلال خشيب، فلسفة الإستراتيجية الأمريكية، مجلة الفكر الحر الإلكترونية، العدد 110 .

مناظرة بين البروفيسور طارق رمضان والسيد سرجيا بوبوفيتش مدير مركز العمل غير العنيف والإستراتيجيات التطبيقية في صربيا "كانفاس" .

http://www.youtube.com/watch?v=wG5s62aV370&feature=share

- Russia in the Islamic World , Sergey Markedonov , national interst , June 27, 2012

http://nationalinterest.org/commentary/russia-the-islamic-world-7126